الفصل الثالث

مفهوم الثقافة في كتاب الهوامل والشوامل

د. طارق سعد شلبي(*)

(1)

يعد الكشف عن الدلالة اللغوية لأحد المفاهيم بمثابة "تقليد منهجي" يستوفى به الباحث جانبا شكليا من البحث، إلا أن عودتنا إلى "لسان العرب" للكشف عن مدلول "ثقافة" قد صدرت عن طموح يتجاوز مجرد الوفاء لهذا الإجراء.

إن الناظر في المعجم يستوقفه تنوع دلالي لا يصل إلى درجة التعارض والتضاد، ولا يضمر في الترادف والتكرار، مما يغرى بالتماس رابط جامع بين هذه الدلالات المتنوعة، لا من باب الترف العقلي، بل وصولا لـ "رؤية" اللغة لهذا المصطلح، هذه الرؤية قد تتمثل في ذلك الرابط الجامع بين هذه الدلالات المتنوعة، وهو لون من منطق نشاط اللغة المشكل للوعي بالمفاهيم.

ترتبط الثقافة ـ لغة ـ بمهارات عقلية ذهنية تتضح في حيازة معارف على نحو يتسم بالاكتمال، يقال ثقف الشيء: حذقه، ورجل ثقف: إذا كان ضابطا لما يحويه قائما به، وترتبط الثقافة بسرعة التعلم والذكاء وإدراك الشيْ وثبات المعرفة بما يحتاج المرء إليه.

وتتجه دلالة الثقافة وجهة مغايرة فنعنى العمل بالسيف، والخصام والجهاد، وترتبط كذلك بالتعديل والتقويم فالتثقيف التسوية.

(*) أستاذ مساعد بقسم اللغة العربية ـ كلية الآداب ـ جامعة عين شمس.

(٢)

والمتأمل في هذه الدلالات يمكنه ربطها بأدوات تتمثل في الذكاء والفطنة والضبط وثبات المعرفة، وقد تتخذ هذه الأدوات مجلي ماديا يتجسد في التعديل والتهذيب والتسوية، وفى ذلك كله بعد المعاناة والمكابدة عبر نوال الشيْ وسرعة الإدراك والخصام والجلاد.

أما عن الجانب المعرفي الناجم عن هذه الأدوات فقد تبوح به عبارة ابن منظور: "غلام ثقف أي ذو فطنة وذكاء والمراد أنه ثابت المعرفة بما يحتاج إليه" فثمة جانب نفعي من الثقافة لا يملك المثقف إلا أن يخضع فيه لواقعه الاجتماعي المعيش، الذي يهيمن على تحديد كنه الثقافة ومداها بما يحتاج إليه.

والحفاوة بهذه الدلالات المنبثة في تراثنا في بعده اللغوي لا يعقل أن تصرفنا عن المفهوم المعاصر لهذا المصطلح الذي كانت بلورته محصلة لتطور فكرى رصد فيه المفكرون المعارف واكتسابها، فقد ترجم سلامة موسى **culture** بـ "الثقافة" والمراد بها المعارف والعلوم والآداب والفنون التي يتعلمها الناس ويثقفون بها وميز بين الثقافة **culture** المتعلقة بالأمور الذهنية والحضارة **civilization** التي تتعلق بالأمور المادية.

(٣)

وهكذا نجد أن مفهوم الثقافة على هذا النحو لا يتصور أن يكون الاهتمام به منحصرا في عصر دون عصر، فما دامت هناك حياة تنظمها طائفة من المعارف فلا بد أن تكون مسالة الثقافة مجالا للتفكير ومعاودة النظر.

وتطمح هذه السطور أن تكون كشفا لمفهوم الثقافة في أحد مؤلفات أبى حيان التوحيدي، وهو كتاب تضمن في ظننا كثيرا من قضايا الثقافة، وكان أبو حيان في عرضه هذه القضايا وكأنه يؤدي "طقسا" ثقافيا، إذ أهاب بالمساءلة منهجا لعرض ما يود من أفكار، وكأنه يومي إلى أن الوعي بقضايا الثقافة لا يكون إلا عبر إيجابية التساؤل وما يتطلبه من تفكير يتعمق الأشياء بلورة للمفاهيم.

واكثر أبو حيان من النقل عن أبى على مسكويه، وهو ما قد يطلعنا على طقس ثقافي أخر، وهو الوعي بموضع الجهد اللاحق من السابق، وان الجهود المبذولة في مجال الثقافة لا

تكون إلا متراكمة متنامية لا استبدالية مناسخة .

تتجه قراءة كتاب الهوامل اتجاها حرا منسابا ، نلمس فيه تجليات مفهوم الثقافة كما يشي بذلك الكتاب لا بما نريده نحن ، نود أن ندع أبا حيان يتكلم لا أن ننطقه بما نحب ! !

وفى حديث المؤلف عن كتابه ما يشي بوعيه بغرضه الكلى الذي استحال إلى سياق كلى مستوعب لأفكاره ، يهيمن على منهج عرضه ، وهذا الغرض يتمثل في الحرص على إثارة القضايا وعرضها عرضا يهتم بمعالمها ويرصد ركائزها ، دون استغراق في التفاصيل والجزئيات الصارفة عن التصور الكلى للقضايا .

(٤)

تناول أبو حيان كتابة بعض "القضايا الثقافة" التي تحيل إلى مفاهيم للمعارف ، وتحديد لأدوات اكتسابها وبلورة تصورات عن النفس والعقل اللذين هما وسيلة تحصيل الثقافة من ناحية ، واللذين يمثلان هدفها ونتيجتها من ناحية أخري .

فيما يتعلق بالعلوم والمعارف نجد أبا حيان قد حدد مفهوم العلم ومتطلباته وأدواته ، وكشف عن علة التفاوت بين الناس في اكتساب العلم واحتياجه إلى الممارسة ، وحدد المؤلف طبيعة اكتساب المعرفة مبينا دوافع اكتسابها وأبرز أقسامها واحتفل المؤلف بالتفلسف حتى لقد اعتبره كمالا للإنسانية وقد ربط المؤلف ـ لوعيه بأهمية المعارف ـ بين إنسانية الحياة من ناحية والمعارف من ناحية أخري .

أما أدوات تحصيل المعارف فنجد المؤلف يجتهد في إبرازها جمعيا دون انحصار في شكل تقليدي بعينه من أشكال التعلم ، ولهذا نجده يتناول "الفراسة" تناولا يوضح مفهومها ، ويكشف عن "طبيعة ما ترصده ومداه ، ولا يجد حرجا من الحديث المطول بعض الشيء عن الكهانة والتنجيم والعيافة والزجر . ويشير إلى جانب مهاري في اكتساب المعارف وهو الملاحظة التي يفضي تكرارها إلى تحديد المبادئ والمسلمات .

ولا يغفل المؤلف الذات المثقفة ، فيقدم إشارات بالغة الدقة إلى الاستعداد الفطري في اكتساب المعرفة وسلطان السجية في ذلك ، ويوازن بين حظ المرء منهما من ناحية وما يجوزه من معارف وعلوم من ناحية أخري . ويربط المؤلف بين أحد الجوانب المهارية في اكتساب

الثقافة ـ وهو الحفظ ـ وفطرة الإنسان والشيء نفسه مقول عن "الذاكرة" التي حظيت باهتمام المؤلف إلى الحد الذي جعلنه يحدد عناصرها المكونة.

وحين التمس المؤلف مفهوما للتعلم وجدناه يفرق بين الجسم والنفس ثم يرصد ـ على هدى من ذلك طبيعة السلوك الصادر عن الإنسان.

وأثار المؤلف بعض القضايا الثقافية التي هي أصلا تصدر عنه كثرة من الشواغل الثقافية إن جاز التعبير، منها الجدلية بين الكثرة والافتقار، والنزع الدائم إلى التميز والتفرد، والكشف عن بعض الفروق بين الشفاهي والكتابي، وتحديد مفهوم للخير والشر. ورصد المؤلف أثر اختلاف العصور إلى تباين الأذواق. وأشار إلى القيمة الثقافية للشعر التي جعلته يتجاوز مجرد كونه فنا إلى أن يكون أصلا تستمد منه بعض جوانب الثقافة.

ولم يتأت إلى الثقافة قضايا وأبعادا إلا عبر اهتمام واضح بالمجتمع، وتواصل حميم معه، مما يطلعنا على بعد مهم للثقافة قد يحدد كنهها، وهو البعد الاجتماعي، فكأن المثقف لا يستكمل أدواته ولا يجوز معارفه عبر السبل النمطية للتعلم ـ قراءة ودراسة وبحثا ـ وحدها بل عليه أن يوازي ذلك ويوازنه بصلة وثيقة بمجتمعه.

وعليه فقد وجدنا أبا حيان يحدد بعدا غائيا لبعض أدوات المعرفة، ويكون المجتمع مجلى هذا البعد الغائي وماله. وهذا المجتمع منبع يستمد منه المرء بعضا من معارفه النظرية، ولهذا لم يكن من الغريب أن يكون "التفاوت الطبقي" محل اهتمام المؤلف رصدا وتمثيلا.

(٥)

ومن الجوانب التي تساعدنا في بلورة مفهوم الثقافة كما يجليه كتاب الهوامل والشوامل النظر في منهج المؤلف في الرصد والتفكير والتحليل، ذلك أن بعضا من معالم هذا المنهج في الدرس قد بلورها الموضوع المدروس، وهو قضايا الثقافة.

ويمكن أن نجعل من التماس أبعاد القضية المعروضة، ورصد شبكة علاقاتها بما سواها سمتا عاما يوضح لنا طبيعة تعامل المؤلف مع مسائل الثقافة في الكتاب.

والأمثلة على ذلك كثيرة، منها رصد المؤلف للصلة الجامعة بين اكتساب العلم من ناحية والتكوين النفسي للمتعلم من ناحية أخرى، وتتبع تأثيرات الجانب الاقتصادي في

ذلك، ويتضح هذا السمت في جانب قريب من ذلك، وهو الكشف عن العلاقة الجامعة بين بعض الأشكال الثقافية والأنماط المعرفية والدوافع النفسية القارة فيمن يحوز هذه الأشكال وللمؤلف إشارة بالغة الدقة في تعليل طبيعة نظرة الناس إلى العلم على هدى نظرتهم إلى ذواتهم، ويمضى المؤلف خطوة أبعد من ذلك حين نجده يربط بين العلم والسلوك دون إغفال لارتباط هذا السلوك بجانب أخلاقي.

ولا يبدى المؤلف ملاحظاته على مرحلة اليقين المعرفي بمعزل عن هذا السلوك بما يرتبط به من أبعاد نفسية وأخلاقية.

وهذه القضايا التي تربط بين المثقف وقضايا الثقافة لم تصرف المؤلف ـ وهو المعنى بالمجتمع وأفراده – عن عناية موازية بالمثقف في ذاته ليكشف عن الصلة بين صفات الجسم وصفات النفس حتى إنه ليفسر الهيئة الجسمانية على هدى الصفات النفسية ويوضح صدور السلوك عن الواقع الاجتماعي. ويكشف المؤلف عن حقيقة الطبائع وكيفية اكتسابها اعتمادا على ربط ذلك بالنوازع النفسية.

(٦)

تأتينا فيما مضى إلى بيان مفهوم الثقافة في كتاب الهوامل والشوامل عبر بيان طبيعة القضايا الثقافية التي تناولها المؤلف، ثم ببيان طبيعة الإجراءات المنهجية التي توسل بها في درسه هذه القضايا ونحسب أن جزءا من صورة هذا المفهوم يلوح عبر البحث في الأصل الذي صورت عنه هذه الأدوات بما يجعلها تكشف عنه وتوميء إليه.

ونحسب أن مفهوم "الوحدة" الذي يلتقط أوجه الاتفاق والتلاقي بين المتخالفات، مع الوعي بتغاير بعضها عن بعض، نحسب أن هذا المفهوم هو ذلك الأصل الذي صدرت عنه الأدوات المنهجية للمؤلف.

ويرتبط مفهوم الوحدة بسعة صدر لا تعرض عن الآخر ولا تلغيه بل تتأمله وتتجاور معه وتتحاور بحثا عن مساحة التقاء تجتمع فيها أوجه التشابه، وقد اتضح ذلك في "صبر" المؤلف على عرض الآراء على كثرتها وشديد تباين بعضها عن بعض، وحرصه المصاحب على بيان أوجه الصواب والمزية فيها جميعا. مع إبداء الرأي فيها الذي يعد آنئذ آية على درجة حميمة من التجاور معها.

ولا يقوم المؤلف بذلك حشدا وتجميعا، بل وصولا إلى إطار كلى مبتغى جامع لهذه الاتجاهات المختلفة مستوعب ـ في رحابة ـ الفروق والتغايرات بينها.

وربما أمكننا أن نعزو إلى مفهوم الوحدة الذي هيمن على وعى المؤلف الحرص على التماس القاعدة الواحدة المطردة التي يهيب المؤلف بعلومها لتجمع بين المعارف والمعتقدات، أو بين ما هو معرفي وما هو غير معرفي، أو في الحرص على بلورة تصور تتكامل فيه العلوم ليتحقق في تكاملها الحرص الأثير على اطراد القاعدة.

وقد بلغ مفهوم الوحدة عند المؤلف حدا من العمق مكنه من بلورة ملاحظات جامعة بين عناصر الوجود كلها في إطار جامع لا يجد فيها غرابة أن يربط المؤلف بين الإنسان وعناصر الطبيعة لا على جهة التمثيل بل الكشف عما ارتاه علاقة مباشرة رابطة.

ويتضح في هذه الرؤية النزوع إلى شمول الشاهد واطراد القاعدة. وقد ارتكز ذلك بالطبع على نظر كلى يلتمس الركائز والكليات، ويبدو أن هذا النظر الكلى قد أهاب به المؤلف حرصا على صحة الملاحظة ودقة النتيجة.

وبعد

فما مضى من سطور كشف عن "معالم" الاهتمام بالثقافة في كتاب الهوامل والشوامل، وقد اقتصرنا فيها على الملاحظات والنتائج التي يتطلبها عرض ملخص للبحث، ونأمل أن يكون البحث نفسه وسيلة تمثيل وبرهان على ما قدمناه من آراء وتصورات، وهى آراء لم نقحم أنفسنا فيها كما ذكرنا. بل أردنا أن نصغي فيها إلى صوت أبى حيان نفسه!